الأغلبية السلبية

تقع المعارك عادة على خطوط ونقاط التّماس، ففي فلسطين معركة مسلّحة، وفي الغرب معارك ضغوط فعلية أو مفترضة بين اللوبيات الصهيونية والجاليات العربية والإسلامية، وما عدا ذلك فإن مئات الملايين الموزعة في العالم العربي والإسلامي تبقى بعيدة عن التماس، وبذلك فهي بعيدة عن المعركة..

إنّ هذه السلبية مشكلة كبيرة لأنّ اليهود دخلوا المعركة بمجموعهم، بينما لم يدخل المعركة من العرب والمسلمين إلا الملتقون مع اليهود والمتقاطعون معهم.

إنّ هذا الواقع الجغرافي يجب أنْ يسقط لصالح الواقع الواجب وجوده شرعاً، وتآزراً، وقياماً بواجب الأخوة، والنّصرة والحفاظ على المقدسات.

إننا لا ننكر أبداً أنّ واقع الصراع مع اليهود كان عنْصراً مُساهماً في تبلور الفكر العربي والإسلامي (الشرق) حول استعادة «الأنا»، وبقدر ما يزيد تحييد هذا الشرق عن خارطة النّفوذ أو حتى عن الخارطة الجغرافية يزداد إصراراً على استعادة أناه.

وإسرائيل والدول المتواطئة معها لا تنظر عادة إلى المواقف الرسمية في الدول العربية والإسلامية لذلك فهي ترى الوضع مستقرّاً أو في انحدار منذ

عقود، لكن الوضع غير ذلك إذا ما نظرنا إلى التبلورات التي تتمّ على مستوى النخبة المثقفة أو حتى في عموم الشعوب.. وتظاهرات الشارع إزاء كل عدوان إسرائيلي على الفلسطينيين، دليل على هذا الذي نقوله: إنّ هذلاه التبلورات بدأت على المستوى الديني مثلاً تُبرزُ نتوءات واضحة تدعو إلى الجهاد الفعلي ضد إسرائيل، ورغم تباين أقطارها إلا أن هذه النتوءات مجتمعةٌ حول هذه الرؤية التي تعني وجود حسّ مقاومة متنامٍ.. إنّ إقحام الأغلبية السلبيّة البعيدة عن نقاط أو خطوط التماس مع العدوّ في المعركة يتطلّب إيجاد نقاط التّماس المفقودة، إن تغيير الجغرافيا أمرٌ غير متيسّر، لكنّ الخريطة الجغرافية لم تعد هي وحدها الملوّن لتضاريس العالم، إن هناك خريطة أخرى هي «خريطة النفوذ» فأمريكاً مثلاً ليست موجودة جغرافياً في الكثير من الدّول الضعيفة، لكنها نفوذاً موجودة، والذي يفكر في المساس بأمن منطقة ما مثل ما فعل صدّام ذات يوم من آب ١٩٩١م يجب أن يفكر في دوائر النفوذ الموجودة عليها، أقصد دوائر نفوذ الكبار..

إنّ هذه الرؤية الجديدة للخريطة تجعلنا أمام واقع إمكانية إشراك الأغلبية المبعدة جغرافياً عن الحرب فيها..

إنّ التعامل مع الواقع الإسرائيلي يجب أن يكون بمنطق يوصلنا إلى قناعة أنّ الإسرائيليين الذين نخوض معهم معركة مريرة ليسوا متواجدين فقط في فلسطين، إنّ السفير الإسرائيلي الموجود في الكثير من عواصم العالم ليس سوى جندي إسرائيلي قائم على ثغر ما، والصهيوني الأمريكي الذي يجمع المال لإسرائيل ليس سوى جندي أيضاً، إنّ فهم المعركة وفق هذا المعطى يجعل المعركة تأخذ خندقاً أوسع وأخطر.. وهو أمرٌ يجب أن تدركه أمريكا

جيداً، والغرب أيضاً.. ففي الفهم الشرقي ليست المعركة مع الإسرائيلي في فلسطين فقط ، المعركة أشمل من ذلك وأوسع، إنّها ضدّ الإسرائيلي، وأقول الإسرائيلي في كل مكان، وهذا ما جعل حزب الله يختطف أحد رجال المخابرات الإسرائيلية من دولة أوربية، كما جعل أردنيين يطلقون النار على دبلوماسي إسرائيلي في عمّان، ويقتلون تاجر مجوهرات.

بل إن هناك اليوم بوادر على أن هناك جماعات إسلامية جهاديّة غير فلسطينية بدأت ترفع شعارات تحرير فلسطين، أو الجهاد ضدّ اليهود والأمريكيين.. ولعل واقع هذه الجماعات إقليمياً أو وطنياً حيث هي لا يسمح لها بالانتقال إلى محاربة إسرائيل، لكن اختراق هذا الواقع الحاجز في يوم من الأيام سيجعل وصولها إلى خندق المواجهة المصيري أمراً ممكناً..

إن انخراط شخص ما مثل أسامة بن لادن في قضية المواجهة مع إسرائيل معناه خروج القضية الفلسطينية عن كونها فلسطينية إلى كونها قضية أمة... والفتوى الدينية تُؤَثِّم كل قاعد مسلم مهما كانت جنسيته، والذي يميز اليوم حماس والجهاد عن بقية الجماعة غير الفلسطينية ليس سوى وجود أو انعدام نقطة التّماس..

إنّ الذين تأملوا التبلورات الفكرية القناعية عند الشارع العربي والإسلامي، سواء كمحصّلة للتراكم النفسي الذي تحدثه الهمجية الإسرائيلية، أو للتراكم المعرفي، يدرك أنّ المعركة تخرج يوماً بعد يوم إلى مجالها الأرحب، مجالها الطبيعي..

وشارون ذاته يُعلن أنه كما أن أمر القدس يستدعي من عرفات استشارة جميع العرب والمسلمين في العالم، فإن باراك مخطئ حينما يقرر الأمر لوحده، والواجب استشارة جميع اليهود في العالم حول كل ما يخصّ القدس.

ثم إنّ سلاح المقاطعة للبضائع الأمريكية في الوطن العربي والإسلامي يدل على أنّ هناك إقحاماً للشارع من طرف النخبة المثقفة في الصِّراع... ومهما كان من وقع هذه المقاطعة على الاقتصاد الأمريكي والإسرائيلي، فإنّ ذلك يعني هو أنّ حركة الاندماج العربية الرسمية في المنظومة العالمية السائرة إلى إنهاء الصِّراع في الشرق الأوسط عبر حلّ سيكون بالتأكيد لصالح إسرائيل، تقابلها حركة اندماج شعبية في مشروع المقاومة والصِّراع. وإنّ كلّ تنازل رسمي يعتبر استفزازاً للشعب للتمسّك بحق وبخيار الحسم عن طريق المقاومة..

إن بريجنسكي حين ينظّر لآفاق السياسة الخارجية الأمريكية في كتابه الصادر سنة (٢٠٠١م)، فإنه يقسّم الكرة الأرضية إلى أقاليم قديمة، ومن ثم فهو يرسم طريقة التعامل مع كلّ إقليم، (أوربا، إفريقيا، الشرق الأوسط) على حدى.. لكنّ المسألة ليست كذلك، فقضية الشرق الأوسط ليست قضية محدودة بهذه الإقليمية الجغرافية.

إن الذي يحدث اليوم في فلسطين من انتفاضة شعبية،و مقاومة باسلة، هو الصورة المصغّرة، والممكنة، أقول الممكنة للانتفاضة وللمقاومة الكبرى غير الممكنة اليوم لا غداً، وهي مقاومة العرب والمسلمين جميعاً لإسرائيل.

ولو أمعن بريجنسكي النظر لعرف أن المدمّرة كول لم تُدمّر في فلسطين، ولا بأيدي فلسطينية، ولا هي مدمّرة إسرائيلية، إن المدمّرة كول تُعَدُّ إرهاصاً لصراع يأخذ مداه من الممكن المتاح مستقبلاً.

والصراع النظري القائم الآن، والذي يُشحن به الملايين على امتداد العالم العربي والإسلامي ليس مرتبطاً بالأرض بل بالعدوّ، وهي نظرية يجب تأملها كثيراً، فالمهمّ ليس هو الإسرائيلي الموجود في فلسطين، لذلك فأمريكا ذاتها بميزان هذه النظرية مُدانة لأنها تحتضن النار، فكيف لا تحترق أطرافها..؟!!

القضية ليست قضية هيمنة درع صاروخي مُضاد للصواريخ البالستية، فما الذي يغنيه الدّرع حين تكون المصالح الأمريكية معرّضة في كل شبر من العالم للنّقمة مفسحة المجال في ظل العولمة والانتشار الاقتصادي لهيمنة التواجد الأوربي، والياباني، والصّيني وحتى الرّوسي؟!!

ثمّ إنّ تحول امتلاك الأسلحة النووية المحرّمة من الدول إلى الجماعات، بل والأشخاص مستقبلاً، باعتبار التكنولوجيا كلما تقادمت كلما اتسعت رقعة انتشارها، سيجعل في أيدي العديد من المنظمات الناقمة على أمريكا وإسرائيل مثل هذا السلاح، وبالمنطق المتطرّف في مواجهة تطرف العدوّ وإجرامه، لنْ تكون هناك قوامة للمعاهدات والاتفاقيات الدّولية على هذه الجماعات في استعمالها لهذه الأسلحة الفتّاكة.. كون هذه الجماعات أولاً تكفر بالقرارات والهيئات الدولية.. ثمّ لواقع انتهاك هذه القرارات من طرف أمريكا وإسرائيل ذاتهما.. فأين اتفاقية الحد من انتشار هذه الأسلحة بالنسبة لإسرائيل؟ وأين اتفاقية ١٩٧٢م بالنسبة لأمريكا؟ كما أين... وأين؟...

إنّ هذا الأمر ليس ضرباً من الوهم بقدر ما هو واقع في ظل ظهور قوى وجماعات ضاربة استطاعت الوصول إلى مدمّرة أمريكية محصنة تحصينا كبيراً... تسبح في مياه لم يكن المتوّقع حدوث شيء فيها..

إنّ فكراً قائماً على رد ظلم الآخر ولو بتفجير سفارة وقتل مئات فيها، هذا الفكر لا يقف إلا عند حدود الممكن المتاح، ولئن كان المتاح اليوم هو هذه الكيلوغرامات من المواد المتفجرة، فإنه سيكون غداً مواد نووية أخْطر..

فهل يقتنع بالقرارات والمعاهدات والاتفاقيات الدولية حول انتشار واستعمال الأسلحة المحرّمة دولياً شخص يقف في قلب تل أبيب أو واشنطن، في يمينه فتوى دينية بوجوب قتل العدو، وفي يسراه حقيبة متفجرات نووية؟!!

إن مشكلة أمريكا تكمن في كونها تعمل بهيمنتها «الجوفاء» كما سماها صموئيل هنتغتون على احتواء حركة العناصر العالمية التي هي الأنظمة، في الوقت الذي لا يعد انضباط هذه العناصر المؤشر الحقيقي والفعلي على انضباط مناطقها، واليوم لا أحد يجهل أنّ هناك حركة تمرّد واسعة على النظام العالمي الأمريكي ومقرارته.. وهناك من الأمريكيين والصهاينة من يدركون مثل هذه الحقيقة، حقيقة الخطر المستقبلي، وفي آخر كتبه وهو بعنوان: ما بعد السلام («BEYOND PEACE»)[1] يلفت الرّئيس الأمريكي «ريتشارد نكسون» نظر الأمريكيين إلى الآثار التي تخلّفها حروب ومشاكل أمريكا والتي يكون المسلمون ضحاياها.. وقد وجّه الرئيس نصائح عدّة لرؤساء أمريكا القادمين في وجوب مدّ الجسور مع الشعوب الإسلامية.

(١) ما بعد السّلام لريتشارد نيكسون. الناشر راندوم هاوس، نيويورك.

ففي فصل بعنوان: «بناء جسور جديدة مع العالم الإسلامي» يقول «نكسون»: «على أمريكا ألا تتجاهل المشاكل والحروب التي يكون فيها المسلمون هم الضحايا»، ويشير إلى الحرب بين المسلمين والصّرب، ورأيه الذي أعلنه قبل ٣ سنوات، فقد كان من أوائل الذين دعوا لدور أمريكا فقال (مع آخرين مثل الرئيس السابق ريجان ووزير الخارجية السابق شولتز، وكان هذا قبل الرئيس كلنتون، في عهد الرئيس السابق بوش) ويقول نكسون: «إنّ المعاهدة الفلسطينية الإسرائيلية وخطوات السلام بين العرب وإسرائيل يجب أن تصحبها إعادة تقييم، لعلاقات أمريكا مع الإسلام والمسلمين».

وهو في هذا ينطلق من نظرية «صراع الحضارات» ويشرحها بقوله: «إذا أخطأ الغرب في حقّ المسلمين، سيؤدي هذا إلى صراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية».

ويقول: «على الولايات المتحدة أن تمنع هذا، أي أن المواجهة ضدّ الإسلام يجب ألا تحل محلّ المواجهة ضد الشيوعية».

ويقول نكسون: «لو كان سكان سراييفو، عاصمة البوسنة، مسيحيين أو يهوداً، لما سكت العالم المتحضّر على ما حدث لهم» ويرى أن «عطف الأمريكيين على اليهود الذين أحرقهم هتلر في ألمانيا النّازية يجب أن يطبّق على أيّ شعوب أخرى تواجه الظلم»، ويقول نيكسون «أنّ صراع الحضارات سيتحقق في حالتين، الأولى إذا أهمل الغرب الظّلم الذي يقع على المسلمين» [1].

(١) انظر «المجلة» العدد ١١/٧٦١ ــ ١٧ ــ ١٩٩٤م ص ٧٣ ــ ٧٤.

ولا يجب أن نهمل هنا أنّ الرّئيس نكسون قد أصدر قبل هذا الكتاب العديد من الكتب من أهمّها: «لا فيتنام أخرى»، الأمر الذي يدلّ على أنّ التجربة الأمريكية المجرّدة عن التوجيه الصهيوني آيلة إلى التّبلور في شكلها العقلاني البعيد عن «الاستعمار» و«الإذلال».

غير أنّ عزل الحركة الأمريكية سياسياً وعسكرياً عن مسار الاعتبارات الصهيونية أمرٌ يعدُّ وإلى أن تسقط أمريكا بعيد المنال.

ويمكن لقارئ كتاب «أصدقاء بالفعل» لدان رافيف، ويوسي ملمان، Friends in Deed inside the U.S-Israel – Alliance، والذي يكشف الدور الذي تمارسه الصهيونية في أمريكا انطلاقاً من «عقدة الإثم» تجاه ما حدث لليهود على يد النازية، مع الإشارة إلى أنّ الظاهرة الصهيونية في أمريكا ستعمل مستقبلاً على إخراج بعض أذرعها إلى النّور، وقد حدث هذا مؤخّراً في وصول السيناتور الناموسي جوزيف ليبرمان إلى الترشح لنيابة المرشح للرئاسة «آل غور»، وهو ما سيزيد من الاحتواء الصهيوني للمسارات الأمريكية وعلى كلّ الأصعدة. إنّ أمريكا حَسْبَ تعابير البعض تكيل بمكيالين، والإجحاف فيهما من نصيب العرب والمسلمين، وهذا الرأي خطأ، لأنّ النخبة الصهيونية الحاكمة في أمريكا أو الواقعة تحت الضغط والتأثير الصهيوني هي التي تمسك بكل المكاييل والموازين، وآنذاك فإنّ إسرائيل هي التي تكيل لنفسها بمكيال الإبقاء وللأعداء بمكيال قسمة ضيزى).

والتكتلات التي تقوم اليوم سواء عبر الحركات اليمينية في النمسا، وألمانيا، وغيرها أو اللوبيات الإيديولوجية المواجهة للوبي الصهيوني في

الغرب، تعدّ إرهاصاً لمواجهات ساخنة مستقبلاً، والدول الغربية يجب أن تفهم أن المواجهة التي ستكون مفتوحة على مواطنيها اليهود لن تكون كذلك لكون هؤلاء اليهود من مواطنيها، ولكن لأن ولاءات هؤلاء لإسرائيل، وهم امتداد لحربها على العرب والمسلمين، وحينذاك فليس من المعقول أن يُعَامَلُوا بغير ما يُعامَل به الإسرائيليون فقط لأنهم مواطنون غربيون. كما أنّ على هذه الدول الغربية وشعوبها أن تفهم أنّ تعدد ولاءات مواطنيها، بينها وبين إسرائيل، يُعَدُّ مشكلة بالنسبة لها، لأن غطاءها السياسي سيكون قاصراً عن استيعاب تضاريسها البشرية، وهذا لا يعني الديمقراطية وفتح الباب أمام العدو ليقول ما يشاء ويفعل ما يريد، بقدر ما هو اختراق لها وتوجّه مضادّ للتوجّهات الحاسمة في علاقاتها مع الكيانات العالمية. واليهود لا يمارسون تحركاتهم ومواقفهم انْطلاقاً من كونهم مواطنين فرنسيين أو ألمان بقدر ما يمارسونها كرعايا ممتازين في فرنسا وألمانيا.. وهم لا يتحركون وفق مصلحة البلد الذي هم فيه، بل يستغلون الديمقراطية لخدمة مصالح إسرائيل.

إنّ الذي يمكن أن يجزم به المرء هو أن الجاليات اليهودية في الغرب ستكون مثاراً لمشاكل للدول التي تعيش فيها كون الأزمان الماضية كانت عقوداً لهيمنة هذه اللوبيات اليهودية، بينما اليوم ومع ازدياد الوعي والحسّ القومي والديني عند الجاليات العربية والإسلامية وتصاعد الصراع في قضية فلسطين، ستكون هذه اللوبيات اليهودية وجهاً لوجه مع لوبيات أخرى تمثّل الشارع العربي والإسلامي، وبذلك تتحول هذه الدول إلى نقطة للتماس، ومن ثَمَّ لاحتدام الصراع على فلسطين في فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، وأمريكا....

وحينما نتكلم عن الصهيونية ونستبعد اليهودية، فإننا نغفل جزءاً واسعاً من دائرة الخطر والمكر، فحينما نقول الصهيونية فإننا نقصد المؤامرة التي نرى ظلالها اليوم في فلسطين، أما حينما نقول اليهودية، فإننا نقصد مؤامرة أكبر ربما لا نرى لها ظلاً في الواقع، لكن أيديها الخفيَّة تتحرك في كل شبر من الوطن العربي والإسلامي، لذلك لا بدّ من إعادة النظر في المسمّيات، لا أقصد المصطلحات، لأنه لا مشاحاة في الاصطلاح، بل أقصد المسمّيات، وتبرئة اليهود من عدائنا لمجرد أنهم ليسوا صهيونيين، أو ليسوا إسرائيليين مشكلة كبيرة أوجدها الخلط المريع في فهم المسلّمات، والتّراكمية التتابعية للفكر العربي، إن الفكر العربي والإسلامي لا ينطلق اليوم من واقع الضحيّة، واقع المعركة، لذلك فهو لا يمثّل أمته بواقعها، ثم إن متابعة اللاحق للسّابق على الخطر وسوء التقدير قد أوجد تراكمية يصعب كسرها أو مواجهتها.. ثمّ إنّ الثقافة العربية الإسلامية، والتي ولدت الفكر السياسي وحكمت الصّراع كانت مجرّد ظلّ أو جزء طبيعي لثقافة إنسانية عالمية قائمة على الشعاراتية. والشعارات المرفوعة اليوم باسم حقوق الإنسان، أو حرية التّدين، أو المواطنة، أو حماية الأقليات استطاعت أنْ تملأ العقل الإنساني حتى وإن كانت قائمة على الكيل بمكيالين، وقد وَجَد الفكر العربي والإسلامي نفسه مجارياً لهذه الثقافة على تدجيلها، وجد نفسه يردّد أن حقوق اليهود محفوظة لهم كمواطنين، وكأقليات، وكجيران، و.. و.. وهو الأمر الذي أسقط الحقيقة لصالح الشعار.. ومن حق الأمريكي أو الفرنسي أو الياباني أنْ يرقولات، وأن يدعمها، لكنْ كيف يطلب مثلاً من الفلسطيني المقيم في أمريكا، والذي يرى جمعية يهودية تجمع الأموال لدعم إسرائيل لمواجهة

الانتفاضة، وقتل إخوانه، أنْ يؤمن أن عليه واجبات تجاه.. جيرانه اليهود..؟!!

إنّ لهذا الفكر انعكاسات خطيرة وظلالاً سلبية على أداء المعركة والصّراع، لذلك فإن تصحيح هذه الأغْلوطات يستدعي أن نفهم أنّ اليهود يمثّلون مشروعاً عدواً أوسع من مشروع الصهيونية، بسبب أن الصهيونية محكومة بالحدّ الجغرافي (فلسطين)، بينما اليهودية تمارس عداءها المحكوم بالشوفينية الدينية والعُقد التاريخية في كل أرض تكون فيها، وفي كل وطن تقيم فيه.

❖ ❖ ❖